

بسم الله الرحمن الرحيم  
قراءة في ديوان مواجهات  
ندوة أدبية بمركز المسحاح الثقافي بغزة  
د. يوسف شحدة الكحلوت

قد جاء شعر أحمد الريفي في معظمه شعراً سياسياً محاطاً بإطار عقدي ، وصادراً عن رؤية واضحة ، ومتسلحاً بمنهج أصيل ، ولما كان الشاعر صاحب منهج قويم ، وفكر أصيل ، فلا بد أن ينطلق في أشعاره وأعماله الأدبية من هذا الفكر، وهو القائل:  
(ديوان مواجهات، ص ٦)

نحن جند إلى الشهادة نسعى      ومن الموت تَسْتَمِدُّ الحياة  
نحن للحق والحقوق سياج      وجبال في الأرض راسيات  
نحن في أرضنا براكين تغلي      وبيوت تقام فيها الصلاة  
ودماء على الثرى جاريات      وعيون من التقى باكيات

ولأن الشاعر عايش الأحداث السياسية التي ألمت بالقضية الفلسطينية بكل دقائقها وأبعادها ، لذا فإنه يصور لنا في ديوانه هذه الأحداث تصويراً دقيقاً في معظم الأحيان ، فيذكر أوصلو ، وعملية السلام ، ومذبحة الحرم الإبراهيمي ، والانتفاضة ، ومذبحة جنين ، والقمة العربية وغيرها .

لقد صُبغ شعر الريفي في معظمه بصبغة الثورية التي تحمل معنى التحدي أحياناً ، ويظهر ذلك بوضوح في شعره العمودي ، ومن أمثاله قوله في قصيدة وحدنا :-  
(مواجهات، ص ٤٩)

في طريق المجد نمضي قدماً      وسوانا خلفنا يقفو خطانا  
نبذل الأرواح لا نرضى لها      غير ساح الدم والنار مكانا  
دما حـر ومر لحمنا      لا يرى إلا أسوداً من يرانا  
نعشق الموت سبيلاً للعلا      قد أتيناها مراراً وأتانا

ويأتي شعره ساخراً متهكماً فيجوبه غالباً شعر التفعيلة ، كما في قصيدة " حمار ذكي " حيث يبدو تمرد الشاعر على الأوضاع بعد أوصلو ومنها مظاهر الغش وانعدام الضمير عند المسؤولين .

ولقد زخر ديوان مواجهات بالحديث عن الشهادة والشهداء ، فلا تكاد تخلو قصيدة من ذلك ، وقد أفرد الشاعر مجموعة من القصائد في رثاء القادة من شهداء " حماس " منهم الشيخ الشهيد أحمد ياسين الذي اختصه بأربع قصائد اثنتين من شعر التفعيلة ، واثنين من الشعر العمودي ، كونه قائداً ومؤسساً للحركة ، كما ورثي الشهيد عبد العزيز الرنتيسي ، والمقادمة ، وعماد عقل ، ويحيى عياش ، وأبا الهنود ، مما يشي بعلو قدر هؤلاء في نفس الشاعر وإعجابه بهم .

هذا وقد جاء حديثه عن الشهادة والشهداء منثوراً في معظم قصائده مبرزاً لأجرهم ومنزلتهم عند الله ، ولعل الشاعر بكثرة حديثه عنهم يعكس رغبة في نفسه للحصول على هذا الشرف ، وهو ما يظهر في نهاية قصيدته " الشهداء لا يموتون " حيث قال :-  
( مواجهات، ص ٥ )

يا ليتني مثلهم أجراً ومنزلةً      وليتني واصلٌ يوماً كما وصلوا

كما ولا ينسى الشاعر قضية الأسرى كونها تمثل القلب النابض لأهل فلسطين ، فهم الذين حملوا همّ الوطن والمقدسات ، ومثلوا خط الدفاع الأول عنها ، لذلك يفرد لهم الشاعر قصيدتين : واحدة عمودية ، وأخرى من شعر التفعيلة ؛ إلا أن الشاعر يقرأ الحالة التي يعيشها الأسير بصورة مختلفة عما نقرؤها نحن ، فهو يراهم طلقاء أعزة في قيدهم ، بينما من هم خارج السجن مقيدون بأغلال الذنوب والمعاصي والعمالة والجبن والبخل ، وقد ظهر ذلك في قصيدته " الأسرى " .  
وعبر في قصيدته " أنتم الطلقاء " عن معاناة الشعب الفلسطيني المحاصر في لقمة عيشه ، والمعذب ذلاً وانكساراً ، بينما السجناء غير ذلك ، فيقول :-  
( مواجهات، ص ٣٠ )

أنتم الأحرار حقاً وهنا نحن جميعاً سجناء  
في بحار من عذاب ودماء  
حولكم أنتم جدار من حجر  
بينما من حولنا ألف جدار وجدار  
نحن في حالة جوع ودمار  
خبزنا اليومي ذلٌّ وانكسار

وقد كان لفلسطين والقدس والأقصى حضور دائم في ديوان الشاعر بحسبان هذه المقدسات من أهم القضايا التي تشغل ضمير كل مسلم ، وقد ظهر هذا الاهتمام في الكثير من قصائده ، منها قصيدة " ترابي " ، " وقمة في القاع " ، " وقولوا لشارون " ، و" رغم جرحي " ، و" أوصلو...القدس " ، وعيد الشهادة" وقصيدته "بيت وبيت" ، التي يعبر في نهايتها عن حبه الغامر لفلسطين التي ما بكى شيئاً فاته غيرها ، فيقول :  
( مواجهات ، ص ١٠٠ )

لم أبك شيئاً فاتني  
لكنني على حبيبتي فلسطين بكيت ...!

وفي قصيدة "رغم جرحي" يقول :  
( مواجهات ، ص ٣٩ )

يا فلسطين أه يا كبدي      كيف يحيا من صودرت كبده  
أنت روعي ومهجتي ودمي      ليس شئ سواك أفتقده  
حسن عينيك لا مثيل له      كلُّ حسن سواه أنتقده

وقد عبر الشاعر في الكثير من أشعاره عن رفضه لعملية السلام المشنومة ؛ لما أحدثته من ضياع للحقوق والأوطان ، وأعطت لليهود الحق في أرضنا ، وقد أورد ذلك في قصيدة "أوصلو...القدس" كما يستبعد أن يتم سلام مع يهود ، وهو ما ظهر في قصيدة " منافق شريف" حيث قال :

(مواجهات ، ص ٦٨ )

ابق بعيداً كلما اشتد على الدنيا الزحام  
ولا تصدقهم إذا تكلموا عن السلام  
حتى ولو قالوا غداً سيدخل اليهود في الإسلام

وهو بذلك يذكرنا بالشاعر هاشم الرفاعي في قصيدته "وصية لاجئ" التي ألقاها في عام ١٩٥٨ نصرَةً لقضية فلسطين ، وفيها يوصي أبناء اللجوء والشتات الفلسطيني ألا يخدعوا بالسلام

التي تطرحه المحافل الدولية ، فيقول :  
(ديوان هاشم الرفاعي ، ص ٣٨٠ )

سيحدثونك يا بني عن السلام  
إياك أن تُصغي إلى هذا الكلام  
كالطفل يخدع بالمنى حتى ينام  
لا سلم أو يجلو عن الوجه الرغام  
صدقتهم يوماً فأوتني الخيام  
وغدا طعامي من نوال المحسنين  
يُلقى إليّ إلى الجيع اللاجئين  
فسلامهم مكرٌ ، وأمنهم سراب  
نشروا الدمار على بلادك والخراب

ولا ينسى الشاعر رغم قسوة الظروف وزحمة الأحداث التي تحيط به وبشعبه نتيجة الاحتلال - أن يحمل همّ المسلمين في باقي أصقاع الأرض ، فيذكر العراق وما ألمّ به فيبكي لحاله ويفتديه بنفسه وماله، ويحث المسلمين على نجاته ، فيقول:-  
(مواجهات ، ص ٤٤ )

فغداً سيشرق وجهك البسام	يا أرض دجلة والفرات تجلدي
لن يخذلوك وفيهم القسام	لك في فلسطين الجريحة أخوة
تدوهم الأممال والآلام	طاروا إليك بغير أجنحة ترى
ويروح فوق ترابها الأقسام	بغداد عاصمة الرشيد أيعتدي
فشكت فردت مصر أين الشام	عبث العلوج بأرضها وسمائها

وقد كثر في ديوان الشاعر الحديث عن حال الأمة ، وما آلت إليه ، وما حلّ بها من نكبات فيخاطبها مرة زاجراً ، وأخرى لائماً ، وأحياناً مستعظفاً ، ومذكراً بأمجادها السالفة ، وأحياناً أخرى مستنهضاً للهمم ، فيقول في قصيدته قولوا لشارون :-  
(مواجهات ، ص ٣٦ )

فجری علی یدہ الدّم المسکوب	یا أمة طعن العدو فؤادهما
إنّ الحیاة توهج ولهبیب	قد طال نومك فانهضي وتوهجي
وأصابها قبل الأوان مشیب	یا أمة نزع اللصوص خمارها
إذ صار نهياً عرضها المحجوب	وتنازعت أيدي اللئام حجابها
ربّ السماء ضمائر وقلوب	لن تنصري إلا إذا رجعت إلى
يعفو ويغفر، والمسيء يتوب	فاستغفري المولى الكريم فإنه

هذا التشخيص لحال الأمة من خلال تكثيف الصور المجازية ، إنما أراد به الشاعر أن يبرز مدى الذل والانكسار والضياع والانهازم الذي وصلت إليه ، فأصبحت كالمرأة المطعونة في فؤادها ، والمنتزع حجابها ، والمنتهك عرضها ، فتكالبت عليها أيدي اللئام واللصوص ولن تعود لها عزتها ومجدها إلا إذا عادت إلى منهج ربّها وتمسكت بدينها .

وقد تعرض في شعره للعديد من المشاكل الاجتماعية بالنقد ، كالجفوة بين الأخوة في قصيدته " إلى أين " ، وعقوق الوالدين في قصيدته " الأسرى " ، والضرائب التي تلاحق الناس وتفسد عليهم معيشتهم في قصيدته " ضريبة " ، وكذلك انتشار المحسوبية والسحت والنفاق من قبل المسؤولين في قصيدته " منافق شريف " كما تحدث عن الفجور والفسوق في بلاد العرب في قصيدته " شموخ وكبرياء " و تعرض لتقلت البنات وخروجهن كاسيات عاريات وسط إهمال الأهل وانشغالهم بمفاتن الدنيا في قصيدته " ديوث " التي يقول فيها :  
( مواجها ، ص ٧٧ )

ديوث !!

يُطِيلُ في منزله المكيّف المكوثُ  
كأنه من قوم نوح  
عاكفٌ على سِوَاغٍ أو يعُوقُ أو يعُوثُ  
وزوجُهُ تبحثُ في الأسواق عن  
حاجاتها بحثَ الليوثِ !  
وابنتُهُ تخرُجُ دونَ إِدْنِهِ  
وشعرُها منكوثُ  
وكلما اعتدى عليها فاسقٌ في الدرب تستغيثُ  
قيلَ: أما لها أبٌ أم أمُّه أباً خبيثُ  
لا ... أبداً ... بل طيبٌ لأنه  
يغضبُ إن قيل له ديوثُ ؟

وقد برز الجانب الإنساني والعاطفي في شعره من خلال رثائه لابنته هالة ، فالشاعر رغم ما أبداه في شعره المقاوم من قوة وصلابة وتحدي للعدو نجده في قصيدة " هالة " يعبر عن أرق مشاعر الأبوة وأسمى درجات العاطفة فيقول :-  
( مواجها ، ص ٤ )

فأصبحت كالطير الكسيح من الحزن  
وأدركت من هول المصيبة ما يعني  
أصيب بها قلبي بأسلحة الطمع

لقد هدّت المأساة أركان همتي  
فأيقنت حقاً أن للموت طعمه  
وتلك لعمر الله أبلغ طعمنة

لقد أصبحت ذكرى ولكن جرحها  
ولا زال يأتيني من الغيب طيفها  
بقلبي يرضيني وبعض الأسي يفني  
فلا هو يغنيني ولا عنه أستغني

وينظم الشاعر قصيدة يواسي بها زميلاً له وصل سن التقاعد بعد عمر حافل بالعباء  
والتفاني في العمل ، فيقول فيه في قصيدة بعنوان "معلم رغم التقاعد" :  
( مواجهات ، ص ١٠٣ )

لقد كنت سباقاً إلى كل حكمة  
تروح وتغدو مرشداً وموجهاً  
وكنت لعشاق المعارف منجماً  
بصمت كجندي يصول ملتثماً  
وإن كان يوم "القبض" نلقاه محجماً  
فيرحل عن خلانه الخل مرغماً  
ألا إنها الدنيا تفرق أهلها

وإذا أردنا أن نستجلي أسلوب الشاعر من خلال شعره ، نجده يكثر من السخرية اللاذعة  
وخاصة تلك التي تقرأ الواقع الاجتماعي وواقع الأمة ، وقد كان موفقاً في اللجوء إلي هذا  
الأسلوب ، ففي قصيدة " سبق صحفي " وقصيدة "مسيرة" يعبر عن الوضع الأمني السائد بعد  
أوسلو حيث الحَجْر على الألسنة ، وممارسة الإرهاب ، وقهر الناس من قبل السلطة ، ففي قصيدة  
"مسيرة" يقول :  
( مواجهات ، ص ٥٣ )

### مسيرة!

كنتُ أسيرُ مرةً في نُزهةٍ داخلَ منزلي الصغيرِ  
وأسرتي كانت معي تسيّرُ  
فاعتقلوني فجأةً لأنني كما ادعوا خرجتُ في مسيرة!!  
تحرّضُ الناسَ على الإرهاب والتدمير  
متى يكفُّ الناسُ في بلادنا عن الشخيرِ!؟

وحين يتناول الموضوعات التي تخصه ، كمهنته في التدريس مثلاً َََ - وما يعاني  
فيها من قلة الراتب ، وكثرة الأعباء نتيجة ما استحدث في التعليم من أنشطة لا طائل منها - فإنه  
أيضاً يستخدم الأسلوب الساخر ، وكأن الحياة في نظره أضحوكة أو مهزلة ، ويظهر ذلك في  
قصيدته الرائعة " الصّفْر " حيث عبّر فيها عمّا يعايناه المعلم من الطالب المستهتر ، فيقول :  
( مواجهات ، ص ٧٢ )

الطالبُ المغرورُ حاوّرني  
وألحَّ حتى كاد يُقنعني  
ومن الحوارِ الكَرُّ والفر  
أنّ الزرافة أصلها فار  
ويقول تلميذي بلا حَجَلٍ  
بينني وبين دفاتري تُأر

مالي وللدرجات أجمعها  
أنا أكتفي بالصفير مقتنعاً  
صيفرٌ حصلتُ عليه معتمداً  
صيفرٌ على بيضاء ناصعة  
بينني وبين الصفير رابطة  
إنني اتخذتُ الصفير لي مثلاً  
تلك المناهج كلها عقْدُ  
الدين والتاريخ لو حُذفا  
والفلسفات والاقتصاد معاً  
من قال إن الأرض دائرة  
بل إنها كالطود راسية  
فغضبتُ منه وقلت يا ولدي

أيضاً مع جُنتي القبر  
إن القناعة للفتى خير  
وحدي على نفسي أنا حر  
ما شابها إثم ولا وزر  
أخوية عنونها الطهر  
أعلى وليس للآمني عُذر  
لا وجنة فيها ولا حصر  
وذلك اللغتان ما الضير  
ولم الخرائط هل لنا شبر  
كروية هذا هو الكفر  
أرأيت هل يتحرك الصخر  
خير لنا من صلك الهجر

وقد برزت روح الفكاهة في معظم أشعاره ذات التفعيلة ، فكانت كل قصيدة بمثابة كاريكاتير ساخر يبرز فيه حال الأمة ، وقسوة العيش ، والوضع الأمني ، الذي يشكل سيفاً مسلطاً على رقاب الناس .

وقد غلب أسلوب الخطاب المباشر في معظم قصائده العمودية ، لأن الشاعر يرسم في شعره صورة يحدد فيها أبعاد الواقع المعيش ويبرز فيها حقائق ما تلة على الأرض وملموسة لدى العامة والخاصة .

وإذا أردنا أن نتحدث عن الجو النفسي العام في القصائد ؛ فإنه يغلب عليه النزعة التشاؤمية المغلفة في بعض الأحيان بالتفاؤل ؛ فالشاعر يائس من تغير حال الأمة أو تحسن الأوضاع ، ويصل به التشاؤم إلى أعلى درجاته في قصيدة "بغداد " حين يقول :-  
(مواجهات ، ص ٤٥)

والله لولا أن ألام لقلتها  
لا مسلمون هنا ولا إسلام

وقوله في قصيدة " أي ليل هذا ؟ " :-  
(مواجهات ، ص ٣٣)

أي ليل هذا الذي نحن فيه  
دون بدر ألا يليه نهار

ويتغير طعم الكون والحياة عنده فلم يعد يشعر للحياة معنى أو قيمة بعد أن ضاعت القدس فيقول في قصيدته " أنتم الطلقاء " :-  
(مواجهات ، ص ٣٠)

نحن أصفار هنا نبحت عن رقم جديد  
لم يعد للشمس معنى  
لم يعد من قدسنا إلا صلاة الخائفين  
هذه أجسامنا ليست سوى ظلّ ثقيل

ووسط هذه الغيوم التشاؤمية يبرز بريق التفاؤل وسط أشعاره فيقول في قصيدة " ترابي  
" متحدياً اليهود :-  
(مواجهات ، ص ٢٦ )

سأجعل من جماجمهم حصادي	غداً سيرى الصهاينة انتقامي
بأن الملتقى أرض المعاد	فأبلغهم إذا سألك عني
على أيدي أولي البأس الشداد	وأن فناءهم فيها قريب
ولو كنتم بقوة قـوم عاد	ومهما تمكروا لن تقهرونا
وليس لنا سوى الرحمن هاد	فلن نرضى سوى الإسلام ديناً

وكذلك نجد هذا الوميض المتفائل في قصيدته " قولوا لشارون " وفيها يستوحي شخصية  
السامريّ ، تلك الشخصية اليهودية التي تمثلت فيها خطيئة بني إسرائيل فضلّ وضلّوا ، قال تعالى  
: " قال فإنّما قد فتنا قومك من بعدك وأضلّهم السامريّ " ( طه / ٨٥ ) حيث يقول الشاعر :-  
(مواجهات ، ص ٣٧ )

يا من عبدت السامريّ وعجله	أت لنا يوم عليك عصيب
سندوس أنف السامريّ ونقتفي	أثر الجناة وكلكم مطلبوب
سنظهر الأقصى بنهر دماننا	وترى نجوم الظهر تلّ أبيب

والشاعر كونه يعشق اللغة العربية استطاع أن يوظف مصطلحاتها النحوية في شعره  
توظيفاً جميلاً ، فنجده يستخدم ظرف الزمان ، والضمير المستتر ، والمجرور ، وحرف الجر ؛ مما  
أعطى هذه المصطلحات أبعاداً دلالية رائعة ، ويظهر ذلك في قصيدته " شهر لا يمر " :-  
(مواجهات ، ص ٥٤ )

مهنتي ظرف زمان وأنا فيها ضمير مستتر  
أنا مجرور وسبورة فصلي حرف جر

وكذلك قصيدة " لا تحسدوني " ، وقصيدة " إعراب الأعراب " حيث يقول فيها :-  
(مواجهات ، ص ٧٠ )

لما حكى الأستاذ عن تكاثر الذباب  
في النحو قالوا أعربي  
"يضحك شارون على كل العرب"  
شارون قالت فاعل وفعله الضحك  
أما " على " فحرف جر ثم مجرور مضاف  
أما العرب  
فلا محل مطلقاً لهم من الإعراب





